Phonemic explanation of morphological phenomena

Characteristics Book of ibn Jinni "392 AH" as a model

Eman Al-Madany, PHD
Princess Nora bint AbdulRahman University
Emalmadany@pnu.edu.sa

DOI: 10.31973/aj.v1i137.1128

Abstract:

Phonology is a science that overlaps with the sciences of language in general, but it is related to the science of morphology as many morphological phenomena cannot be explained and explained without the help of original phonological studies. This research tries to establish the synergy of the phonemic and morphological sciences through Ibn Jani's book of characteristics "392". His efforts had a great impact on grammatical and morphological guidance, as he established phonological origins, and developed accurate terminology and phonological theories that still bear fruit in our time.

His exact morphological explanation for the phenomena of substitution, accusations, entrainment, transposition, and derivation was derived from letter sounds, symmetry, lighterness and weight. He inherited his insightful thought of morphological phonology with the many examples and evidences he presented, through which he asserted that linguistic studies are pure and grammatically based on phonology to understand their components and explain their causes, and that the phonological change has the greatest impact on the semantic and moral change, so the researcher must master the science of The phoneme then proceeds to the rest of the linguistic sciences, and this is what the modern linguistic and phonological lesson follows.

Key words: morphological structures, inflections, letter attributes, phonology.

التعليل الصوتي للظواهر الصرفية كتاب الخصائص لابن جني "٣٩٢هـ" أنموذجاً

د ايمان بنت محمد المدني
جامعة الاميرة نورة بنت عبد الرحمن
أستاذ النحو والصرف المشارك
Emalmadany@pnu.edu.sa

(مُلَخَّصُ البَحث)

إن علم الأصوات علم يتداخل مع علوم اللغة عامة، ولكنه يتلازم وعلم الصرف إذ إن كثيراً من الظواهر الصرفية لا يمكن تفسيرها وتعليلها من دون الاستعانة بالدراسات الصوتية الأصلية. ويحاول هذا البحث تأصيل تضافر علْمَي الصوتي والصرف وذلك من خلال كتاب الخصائص لابن جني "٣٩٢"، فقد كان لجهوده أثر كبير في التوجيه النحوي والصرفي فقد أسّس أصولاً صوتية، ووضع مصطلحات دقيقة ونظريات صوتية لا تزال تؤتي ثمرها إلى وقتنا. وكان تعليله الصرفي الدقيق لظواهر الإبدال والإعلال والإدغام والعدول والاشتقاق مستقى من أصوات الحروف وتماثلها وخفّتها وثقلها. وقد أصَّل بفكره الثاقب لعلم الأصوات الصرفي بما ساقه من أمثلة وشواهد كثيرة جداً، أكّد من خلالها أنَّ الدراسات اللغوية من صرف ونحو تستند إلى علم الأصوات لفهم مكنوناتها وتعليل أسبابها، وأن التغير الصوتي له أكبر الأثر في التغيّر الدلالي المعنوي، لذلك فإن على الباحث إتقان علم الصوت ومن ثمّ يتجه إلى بقية علوم اللغة، وهذا ما يتبعه الدرس اللساني والصوتي الحديث.

الكلمات المفتاحية: الأبنية الصرفية، الإعلال، صفات الحروف، علم الصوت.

المقدمة Introduction:

إنّ صلة علم الأصوات بعلم الصرف صلة وثيقة جداً، إذ لا يمكن تفسير كثير من الظواهر الصرفية من دون الاستعانة بالدرس الصوتي، وقد خبر علماء العربية الأوائل هذه الحقيقة فانبروا يدرسون العلل الصرفية والأبنية المشتقّة وأحوالها المتغيرة في الإبدال والإعلال والإدغام والقلب وغيرها من المباحث الصرفية على أساس صوتي.

فاشتغل الخليل بن أحمد الفراهيدي بالصوت وأدرك القيمة الصوتية للحرف والمقطع واستنبط علم العروض ووضع معجم العين على أساس صوتي. وتابعه سيبويه في كتابه، وكان على وعي تام بأن دراسة الأصوات مقدّمة لا بدّ منها لدراسة اللغة، وأن النظام الصوتي ضروري لمن أراد دراسة النظام الصرفي. (حسان، ش١٩٩٤، ص٥٠)

واشتغل علماء التجويد بالصوت اللغوي، إلا أن أصول علم الأصوات لم تستقر إلا بجهود ابن جني "ت٣٩٢هـ" فقد بدأت الدراسات الصوتية واللغوية عامة تتجه إلى العلميّة والدقّة ووضع المصطلحات والتعريفات والأحكام الدقيقة، وكان لدراساته الصوتية أثر في التوجيه النحوي والصرفي.

وتابع علماء العربية الدراسات الصرفية وتعمّقوا في التحليل الصرفي وكانت عمدتهم في ذلك الدراسات الصوتية، وكانوا يدركون أن لا وجود لعلم الصرف من دون علم الأصوات، وأن الدرس الصرفي يحتاج إلى الحقائق التي يقرِّرها الدرس الصوتي، وهذا ما اشتغل عليه اللغويون في العصر الحديث، إذ بدؤوا دراساتهم اللغوية والأسلوبية بالمستوى الصوتي الذي يعدّ خطوة أساسية للمستوى الصرفي والنحوي والدلالي، وأدركوا أن علم الأصوات هو الحجر الأساسي لأي دراسة لغوية. ولذلك يقول العالم الإنجليزي فيرث "ت١٩٦٠م" لا وجود لعلم الصرف من دون علم الأصوات، لأن المباحث الصرفية مبنية في أساسها على ما يقرِّره علم الأصوات من حقائق، وما يرسمه من حدود"(أنيس، ١٩٧٥، ص١٨٤-١٨٥). وكذا يرى المستشرق الفرنسي فليشر أن علم الصرف العربي يجب أن ينظر إليه من منظور علم الأصوات، بحيث يكون أساس دراسة الكلمة نطقها وليس رسمها، فيعاد بذلك النظر في أصل الصوائت والصوامت والمقاطع وأحرف العلّة. (فليشر، ١٩٦٨، ص١٠).

وسأقف في هذا المبحث على بعض من جهود ابن جني الصوتية وأثر هذه الجهود في التعليل الصرفي من خلال أمثلة متعددة من كتابه الخصائص.

يعدّ ابن جني رائداً من رواد علم الصوت اللغوي إن لم نقل أوّلهم، فقد حلَّل كثيراً من الظواهر الصرفية تحليلاً صوتياً، وبنى كتابه الخصائص على أصول الكلام وأصواته من خفة وثقل، وتجانس الحروف وتآلفها، وعلّل بذلك الظواهر النحوية والصرفية، لذلك قال في مقدِّمة كتابه:

((.. لم نرَ أحداً من علماء البلدين تعرّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه.)) (ابن جني، د.ت، ص٢/١).

ولم يكن علماء العربية لَيَفْصِلون علم النحو عن الصرف بداية، ولكنهم عدوا ابن جني إماماً في النحو والصرف إلا أنه في الصرف أعلى.

والصرف "علم بأصول تعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب"(الاستراباذي، ١٩٧٥، ٢٠/٣). ولذلك أخذ التعليل الصرفي والصوتي عند ابن جني صوراً عدّة، تنوّعت في مباحث الإعلال والإبدال والإدغام والعدول والاشتقاق والخفة والثقل في الأفعال والحركات والتي هي أساس بناء الكتاب. وسنتناول أمثلة من هذه المباحث لبيان النظرات الصوتية عنده وأثرها في التعليل الصرفي.

أولاً: الإعلال والإبدال:

الإعلال مبحث معروف في الدرس الصرفي العربي، وهو ظاهرة صوتية تقوم على التجانس بين حروف الكلمة الواحدة، وتغيير حرف العلة للتخفيف بقلبه أو إسكانه أو حذفه. وأمّا الإبدال فهو جعل حرف مكان حرف آخر من الكلمة الواحدة، وفي موضعه منها لعلاقة بين حرفين. ومن هنا كان الإبدال أعم من الإعلال، إذ كل إعلال يسمى إبدالاً، وليس كل إبدال إعلالاً. (الصبان، ٢٠١٦، ٤٠/٤).

ومن أمثلة الإعلال بالقلب ما أورده ابن جني في "ميزان" حيث قال: "ونحو من ذلك قولهم: ميزان وميعاد، فقلب الواو ياء يدلّ على أن الكسرة لم تحدث قبل الميم، لأنها لو كانت حادثة قبلها لم تَلِ الواو، فكان يجب أن يقال: مِوْزان ومِوْعاد، وذلك أنّك إنّما تقلب الواو ياء للكسرة التي تجاورها من قبلها، فإذا كان بينها وبينها حرف حاجز لم تلها، وإذا لم تلها لم يجب أن نقلبها للحرف الحاجز بينهما.." وذلك أن الكسرة إنما تَقْلب الواو لمخالفتها إياها في جنس الصوت فتجتذبها إلى ما هي بعضه ومن جنسه، وهو الياء.." (ابن جني، د.ط، ٣٢٢/٢-٣٢٣).

فعلل ابن جني هذا الإعلال بتجاذب الأصوات وميلها إلى ما يشبهها فالكسرة بقوتها استجلبت ياء وأعلت الواو الساكنة بالقلب. ولم يكن ليعلل هذا التغير في بناء الكلمة من دون الاحتكام إلى الصوت ومماثلة الحروف والحركات وتجانسها.

ومن ذلك قوله:

".. العرب قد غيَّرت شيئاً من كلامها من صورة إلى صورة، فيجب حينئذ أن تتأتى لذلك وتلاطفه، لا أن تخبطه وتتعسَّفه، وذلك كفولنا في قولهم في تكسير جَرْوٍ ودَلْوٍ: أَجْرٍ وأَدْلٍ، إن أصله أجرُوٌ، وأدلُوٌ، فقلبوا الواو ياء. هو- لعمري كذلك، إلّا أنّه يجب عليك أن تلاين الصنعة ولا تعازّها؛ فتقول: إنّهم أبدلوا من ضمّة العين كسرة، فصار تقديره: أجْرِوٌ وأَدْلِوٌ. فلمَّا انكسر ما قبل الواو- وهي لام- قلبت ياء، فصارت أجرِيٌ وأَدْلِيٌ.." حذفت الياء وضمتها.

ويعلّل ابن جني هذا الإعلال والقلب بملاطفة الصنعة وقوّة الحروف وأصواتها، واستكراه جمع بعض الأصوات مع بعضها، وفي ذلك يقول ابن جني بعد أن يعرض أمثلة متعددة للإعلال بالقلب والحذف:

"فاعرف بهذا النحو هذا الطريق، ولا تُقدمنّ على أمر من التغيير إلا لعذر فيه وتأتٍّ له ما استطعت، فإن لم تجن على الأقوى كانت جنايتك على الأضعف، لتتطرّق به إلى إعلال الأقوى أعذر وأولى فأَبْه له وقِس عليه."(ابن جني، د.ت، ص٤٧٢/٢).

ومن أمثلة تعليله الإبدال لتقارب الأصوات قوله:

"ومن ذلك ستّ؛ أصلها: سِدْس، فلمَّا كثرت في الكلام أبدلوا السين تاء؛ كقولهم: النات في الناس ونحوه، فصارت سدت، فلمَّا تقارب الحرفان في مخرجيهما أبدلت الدال تاء، وأدغمت في التاء، فصارت ست"(ابن جني، د.ت، ص٤٧٢/٢).

إن علّة إبدال الدال تاء هو اتحاد المخرج، فالحرفان من طرف اللسان، واشتراكهما ببعض الصفات كالانفتاح والاستفال والترقيق، لذلك جاز الإبدال بين هذين الحرفين اللذين يدخلان في مجموعة الأحرف الأسنانية اللثوية عند علماء الأصوات المحدثين. ومن باب الإبدال قوله: "أن تقع فاء افتعل صاداً أو ضاداً، أو طاء أو ظاء فتقلب لها تاؤه طاء، وذلك نحو: اصطبر، واضطرب، واطّرد"(ابن جني، د.ت، ص١٤١/٢).

وهذا الإبدال القائم على جعل حرف بدل حرف من الكلمة الواحدة لعلاقة بين حرفين وتجانسهما كثير في كلام العرب، ولا يمكن تعليله من دون العودة إلى المباحث الصوتية.

ثانياً: الإدغام:

يعرَّف الإدغام بأنه الدمج بين حرفين متماثلين أحدهما ساكن والآخر متحرك بحيث يصيران معاً حرفاً واحداً مشدّداً. وقال ابن عصفور:

"الإدغام هو رفعك اللسان بالحرفين رفعة واحدة، ووضعك إياه بهما موضعاً واحداً، وهو لا يكون إلا في المثلين أو المتقاربين، والسبب في ذلك أن النطق بالمثلين ثقليل، لأنك تحتاج فيهما إلى إعمال العضو الذي يخرج منه الحرف المضعّف مرتين، فيكثر العمل على العضو الواحد، وإذا كان الحرفان غيرين لم يكن الأمر كذلك، لأن الذي يعمل في أحدهما لا يعمل في الآخر" (الحملاوي، ٢٠١٠، ١٣٩) وأيضاً "فإنّ الحرفين إذا كانا مثيلين، فإن اللسان يرجع في النطق بالحرف الثاني إلى موضعه الأول، فلا يتسرّح اللسان بالنطق كما يتسرّح في الغيرين، بل يكون في ذلك شبيهاً بمشي المقيّد، فما كان فيه من الثقل ما ذكرت لك رفع اللسان بهما رفعة واحدة، ليقلّ العمل، ويخفّ النطق بهما على اللسان. وأمّا المتقاربان أجريا مجرى المثلين، لأن فيهما بعض الثقل.." (ابن عصفور، ١٩٩٦، ص٣٥).

إن ظاهرة الإدغام ظاهرة صوتية في المقام الأول تقوم على تماثل الحروف واتحاد أصواتها، وثقل المضعّف وآلية عمل اللسان، ولا يمكن تفسيرها صرفياً إلا من خلال شرح العملية الصوتية اللسانية. وقد عرض ابن جني لهذه الظاهرة بقوله:

"إدغام الحرف في الحرف أخفّ عليهم من إظهار الحرفين، ألا ترى أن اللسان ينبو عنهما معاً نبوة واحدة، نحو قولك: شدّ وقطّع وسلّم، ولذلك ما حقّقت الهمزتان إذا كانتا عينين نحو: سأّل ورأَّس، ولم تصحّحا في الكلمة الواحدة غير عينين، ألا ترى إلى قولهم: آمن، وآدم، وجاء، وشاء ونحو ذلك." (ابن جني، د.ط، ٢٢٧/٢).

وقال أيضاً:

"فلمّا كان في إدغامهم الحرف في الحرف ما رأيناه من استخفافهم إيّاه، صار تقريبهم الحرف من الحرف ضرباً من التطاول إلى الإدغام" (ابن جني، د.ط، ٢٢٧/٢).

فبين ابن جني أن علّة الإدغام تخفيف الثقل على اللسان، وأظهر أن الصوت فيهما يكون خفيفاً ليّناً، وذلك يقول في موضع آخر:

".. ومن ذلك استثقالهم المثلين، حتّى قلبوا أحدهما في نحو: أمليت وأصلها أمللت" (ابن جني، د.ط، ٢٣١/٢).

وللإدغام دور كبير في توجيه القراءات القرآنية، وله مدلولات متعدّدة فالعوامل الصوتية لها أثر كبير في تغيّر الدلالات والأبنية الصرفية. فعلم الأصوات هو من أولويات الإدغام، وقد عالجه علماء العربية الأوائل في مؤلفاتهم كما ذكره ابن جني في أكثر كتبه، وممّا جاء في الخصائص في هذا الباب قوله:

"ومن الأمر الطبيعي الذي لا بدّ منه، ولا وعي عنه، أن يلتقي الحرفان الصحيحان فيسكن الأوّل منهما في الإدراج، فلا يكون حينئذ بُدٌّ من الإدغام، متصلين كانا أو منفصلين، فالمتصلان نحو قولك: شدَّ، وصبَّ، وحلَّ، فالإدغام واجب لا محالة. ولا يوجد اللفظ به بُداً منه، والمنفصلان نحو قولك: خذذّاك، ودع عامراً. فإن قلت: أقدر أن أقول: شُدْدَ، وحُلْلَ، فلا أدغم، قيل: متى تجشَّمت ذلك وقفت على الحرف الأول وقفة ما، وكلامنا إنما هو على الوصل. فأمّا قراءة عاصم: (وقِيْلَ مَنْ رَاقٍ) (القيامة، ٢٧/٧٥) ببيان النون من "مَنْ" فمعيب في الإعراب، مَعِيف في الأسماع، وذلك أن النون الساكنة لا توقف في وجوب إدغامها في الراء، نحو: من رأيت، ومن رآك. فإن كان ارتكب ذلك ووقف على النون صحيحة غير مدغمة، لينبه به على انفصال المبتدأ من خبره فغير مرضي..." (ابن جني، د.ط، ٩٣/١-٩٤). إن ما أورده ابن جني حول تعريف الإدغام ومواضعه صحيح، إلّا أنه خالف عاصماً في هذه القراءة القرآنية الصحيحة والمتواترة، فلا سبيل في هذه الآية إلى الإدغام عنده، بل هناك سكتة خفيفة الغاية منها بيان معنى الفعل، ولدفع اللبس وتوهّم المستمع حين يطرق سمعه (من راق) مرَّاق مبالغة من الفعل مرق. (ابن الجزري، ٢٠٠٩، ٤١٩/١) فهنا وإن كان الحرفان متقاربين وواجب إدغامهما إلا أن الدلالة المعنوية تمنع ذلك. إلا أن بقية القرّاء على الإدغام في الآية.

إذن الصوت له أثر كبير في توجيه الإدغام ودلالاته المتعدّدة.

ثالثاً: خفّة الحروف والحركات وثقلها:

إن المتتبع للظواهر اللغوية النحوية والصرفية والدلالية في كتاب الخصائص يجد أن التعليل الصوتي القائم على قانون الخفة والثقل في الحروف والحركات هو الأساس الذي بنى

عليه ابن جني فكره اللغوي وأقام كتبه عليه، ولا تكاد ظاهرة صرفية يوردها في خصائصه إلا ويعللها بالخفة والثقل، فقد علّل ظاهرة عدول بعض الأسماء عن أصولها بهذا الأمر فقال:

"وأمّا السؤال عن عِلّة عدل عامر وجاثم وثاعل، وتلك الأسماء المحفوظة إلى فُعَل: عمر، وجُثم، وثُعل، وزُحل، وغُدر، من دون أن يكون هذا العدل إلى مالك، وحاتم، وخالد، ونحو ذلك... فإن وجدت عذراً مقطوعاً به صرت إليه، واعتمدته، وإن تعذّر ذلك، جنحت إلى طريق الاستخفاف والاستثقال، فإنك لا تعدم هناك مذهباً تسلكه، ومأمًّا تتورّده، فقد أريتك في ذلك أشياء، أحدها: استثقالهم الحركة التي هي أقلّ من الحرف، حتّى أفضوا في ذلك إلى أن أضعفوها، واختلسوها، ثم تجاوزوا ذلك إلى أن انتهكوا حرمتها، فحذفوها، ثم ميّلوا بين الحركات، فأنحوا على الضمة والكسرة لثقلها، وأجمّوا الفتحة في غالب الأمر لخفّتها، فهل هذا إلّا لقوّة نظرهم ولطف استشفافهم وتصفّحهم" (ابن جني، د.ط، ١/٧٧-٧٨).

إن تعليل العدول في الأسماء- وهو ظاهرة صرفية- تعليلاً صوتياً قائماً على الخفّة والثقل، خير دليل على تلازم الصرف والصوت في المباحث عامة. فالعدول هو الانصراف عن الأصل إلى غيره، وهو ظاهرة أسلوبية عني بها علماء البلاغة العربية وعلماء الصرف (عبد السلام، ١٩٨٩، ١٥)، وللصوت حظٌّ وافر في تفسير أصولها.

على وفق قانون الخفّة والثقل علّل ابن جني تركيب الأفعال فقال: "ذوات الأربعة مستثقلة غير متمكّنة تمكّن الثلاثي، لأنّه إذا كان الثلاثي أخفّ وأمكن من الثنائي- على قلّة حروفه- فلا محالة أنّه أخفّ وأمكن من الرباعي لكثرة حروفه، ثمّ لا شكّ فيما بعد، في ثقل الخماسي وقوّة الكلفة به، فإذا كان كذلك ثقل عليهم مع تناهيه وطوله أن يستعملوا في الأصل الواحد جميع ما ينقسم إليه به جهات تركيبه، ذلك أن الثلاثي يتركب منه ستة أصول.. والرابع يتركّب منه أربعة وعشرون أصلاً.." (ابن جني، د.ط، ١/٦١). ولم يكتف ابن جني بذكر علّة تركيب الأفعال الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية بل تحدَّث عن تآلف حروف الفعل الواحد فقال:

"اعلم أنّ واضع اللغة لمّا أراد صوغها وترتيب أحوالها هجم بفكره على جميعها، ورأى بعين تصوّره وجوه جملها وتفاصيلها، وعلم أنّه لا بُدّ من رفض ما شَنُع تآلفه منها، نحو: هع، وقج، وكق، فنفاه عن نفسه، ولم يمرِّره بشيء من لفظه، وعلم أيضاً أنّ ما طال وأملَّ بكثرة حروفه لا يمكن فيه التصرّف ما أمكن في أعدل الأصول وأخفّها، وهو الثلاثي" (ابن جني، د.ط، ١/٦٤).

ويشير ابن جني إلى أن الحروف المتقاربة المخرج إذا اجتمعت في كلمة شق نطقها وصعب تآلفها، وثقل نطقها، وقلّ استعمالها، وكلّما تباعدت الحروف كانت أكثر تآلفاً وخفّة في النطق والاستعمال. وهذا من معايير فصاحة الكلمة الأساسية.

وكذلك علّل ابن جني تكرار حرف في الأفعال بأنه دليل قوة، فصوت الحرف المضعّف أقوى من صوت الحرف الواحد، وتكرار الفعل نفسه دليل على قوة الحدث، وكذلك موضع الحرف المضعف من الكلمة له أثر صوتي دلالي.

فالأوزان الصرفية لها دلالات صوتية. ومن ذلك قوله:

"اجعلوا تكرار العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل، فقالوا: كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق، وذلك أنّهم لمَّا جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوّة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام، وذلك لأنها واسطة لهما، ومكنوفة بهما، فصارا كأنهما سياج لهما، ومبذولان للعوارض من دونها، ولذلك تجد الإعلال بالحذف فيهما من دونها.. فلمّا كانت الأفعال دليلة المعاني كرّروا أقواها، وجعلوه دليلاً على قوّة المعنى المحدّث به، وهو تكرير الفعل، كما جعلوا تقطيعه في نحو: صرصر وحقحق دليلاً على تقطيعه، ولم يكونوا ليضعفوا الفاء ولا اللام لكراهية التضعيف في أوّل الكلمة، والإشفاق على الحرف المضعَّف أن يجيء في آخرها، وهو مكان الحذف وموضع الإعلال، وهم قد أرادوا تحصين الحرف الدالّ على قوّة الفعل، فهذا أيضاً من مساوقة الصيغة للمعاني" (ابن جني، د.ط، ١٥٥/٢).

إن معيار القوة والثقل ههنا واقع على بناء الفعل وتكراره وتضعيف حروفه وأصواته. فأوائل الكلم ومنتصفه فيهما من القوة ما لا يملكه أواخر الكلم غير المتمكن المتعرِّض حرفه وصوته للحذف والإعلال.

وقد أورد ابن جني في خصائصه قصّة تبني عن خفة الحروف وثقلها، وقد نقل القصّة عن أبي حاتم السجستاني في كتابه الكبير في القراءات قال: "قرأ عليَّ أعرابي بالحرم: (طِيبَى لَهُم وحُسْنُ مآبٍ) [الرعد: ٢٩/١٣] فقلت: (طُوْبَى) فقال: (طِيْبى) فأعدت فقلت: طوبى، فقال: طيبى، فلمّا طال عليّ قلت: طوطو، قال: طيطي" (ابن جني، د.ط، ٧٥/١) فعقّب ابن جني على هذه القصّة "أفلا ترى إلى هذا الأعرابي، وأنت تعتقده جافياً، كزّاً، لا دَمِثاً ولا طيّعاً، كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء، فلم يؤثِّر فيه التلقين، ولا ثنى طبعه عن التماس الخفَّة هزٌّ، ولا تمرين، وما ظنُّك به إذا خُلِّي مع سَوْمه، وتساند إلى سليقته ونجره" (ابن جني، د.ط، ٧٦/١).

يريد ابن جني تأكيد طبع الخفّة عند العربي، وإيثاره الصوت الخفيف على القوي. وهذه السليقة عند الأعرابي الذي لم يعهد تعليماً أو تلقيناً لدليل على ميل الطبع إلى الخفة في الحرف والصوت، فالياء وما يسبقها من كسرة لازمة أثقل من الواو وضمِّها، وهذه المشافهة في التلقين بين الأعرابي وعالم اللغة والنحو لأكبر دليل على أدلّة العرب الدقيقة في جمع اللغة من سماع وقياس، وهذا ما يعمل عليه علماء اللسانيات حديثاً في الاهتمام بالمنطوق والمسموع وتحليل هذا الأداء ومن ثم استنباط المعايير الصوتية.

ويفرد ابن جني حديثاً عن ثقل الحركات وخفّتها إضافة إلى الحروف، والحركات أبعاض الحروف وتحتمل من القوة ما تحتمله الحروف، وذلك يقول:

"الضمّة وإن كانت أثقل من الكسرة، فإنَّها أقوى منها، وقد يحتمل للقوّة ما لا يحتمل للضعف، ألا ترى إلى أنّ احتمال الهمزة مع ثقلها للحركات وعجز الألف عن احتمالهن، وإن كانت خفيفة لضعفها، وقوّة الهمزة، وإنما ضعفت الكسرة عن الضمة لقرب الياء من الألف، وبعد الواو عنها.

ومن حديث الاستثقال والاستخفاف أنك لا تجد في الثنائي- على قلّة حروفه- ما أوّله مضموم إلّا القليل، وإنّما عامّته على الفتح، نحو: هَل، وبَل، وقَد وأَنْ، وعَنْ، وكَمْ، ومَن. ومن المعتل: أَو، ولَو، وكَي، وأَي، وهِي. ولا يعرف الضمّ في هذا النحو إلا قليلاً..." (ابن جني، د.ط، ٦٩/١).

انظر كيف علّل بناء الثنائي الخفيف على الفتح ومن ثم على الكسر ولم يورد أمثلة مما أوله مضموم، وذلك لقلّته. وعلّة الكثرة الخفّة وعلّة القلة الثقل، وهذه الأبنية في أوزانها الصرفية وأصوات حروفها جرى تعليل بنائها وحركات حروفها تعليلاً صوتياً.

ولم يكتف ابن جني بالتعليل الصوتي للظواهر الصرفية الخالصة في خصائصه، وإنما ساق أمثلة على أن الأصوات المسموعات قد تكون أصلاً للغات عامة. فقال في ذلك:

"وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللغات كلّها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك. ثم ولِّدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبَّل، واعلم فيما بعد، أنَّني على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعي والخوالج قويّة التجاذب لي، مختلفة جهات التغوّل على فكري..." (ابن جني، د.ط، ٤٦/١-٤٧).

وهذا المذهب الذي يجذب ابن جني إليه بقوة وهو محاكاة الأصوات للطبيعة وتولّد اللغات عن الأصوات المسموعات، مذهبٌ أخذ به علماء الصوتيات الغربيّون وعدّوه فتحاً مبيناً في علم اللغات وأصولها، وبنوا كثيراً من دراساتهم الصوتية واللغوية على هذا الأساس، وهذا يدل على التفكير الصوتي واللغوي المبكر والدقيق عند علماء العربية عامّة وابن جني خاصة. ونظرية محاكاة أصوات الطبيعة التي جاء بها ابن جني تعد تأسيساً للاشتقاق القائم على صوغ الأسماء والأفعال من حكاية صوت، من أجل التعبير عن صدور هذا الصوت أو ترديده. (زيدان، ١٩٨٧، ص١٤٠-١٤٨، والكرملي، ٢٠٠٠، ص٩).

ويقول الأستاذ عبد الله أمين في ذلك: "إذا علمت أنّ العرب قد اشتقّوا الأفعال والمصادر والمشتقّات وغيرها من أسماء الأعيان، كما اشتقّوها من أسماء المعاني من غير المصادر، فاعلم أن لك وراء ذلك مذهباً هو ألطف منه مأخذاً وأدقّ صنعة، وهو أن هذا الاشتقاق من نشأتها الأولى، فإنما كان هذا الاشتقاق من حكايات الأصوات" (أمين، ١٥٦، ص١٢٥).

وكذلك فإن تقليب أصول الكلام فيما يسمّى عند ابن جني بالاشتقاق الأكبر له صلة وثيقة بالصوت.

وتلازم الدرس الصوتي للدرس الصرفي خاصة واللغوي عامة أمر أدركه علماء العربية قديماً وحديثاً، ولذلك نشأ علم بعنوان "علم الصرف الصوتي" لأن: "أي دراسة لا تأخذ بعين الاعتبار الجانب الصوتي، كملحَظ أساسي، تعد قاصرة وغير منتجة" (عبد الجليل، ١٩٩٨، ص٢٨) إذ "لا نستطيع أن ندرس المباني الصرفية أو الصيغ قبل أن ندرس الأصوات التي تشكّل هذه الصيغ، فهناك ظواهر صوتية كثيرة لا بدّ من الإلمام بها قبل الخوض في مسائل علم الصرف مثل ظاهرة الإبدال وغيرها" (مدكور، ١٩٨٧، ص٨٧).

ومن مظاهر التعليل الصوتي للظواهر الصرفية ما ورد في باب "مطل الحروف" فقد ذكر أن "الحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة: الليِّنة المصوِّتة وهي الألف والياء والواو. اعلم أنّ هذه الحروف أين وقعت، وكيف وجدت بعد أن تكون سواكن يتبعن بعضهن غير مدغمات، ففيها امتداد ولين.. ووجه الدلالة من ذلك أن حروف اللين هذه إذا وقف عليهنّ ضَعُفْن، وتضاءلن ولم يفِ مدّهنَّ، وإذا وقعت بين الحرفين تمكّن، واعترض الصدى معهنّ، ولذلك قال أبو الحسن: إن الألف إذا وقعت بين الحرفين كان لها صدى، ويدل على ذلك أن العرب لمّا أرادت مطلهنّ للندبة وإطالة الصوت بهنّ في الوقف، وعلمت أن السكوت عليهن ينتقصهنّ ولا يفي بهنّ، اتبعتهنّ الهاء في الوقف، توفية لهنَّ، وتطاولاً إلى إطالتهنّ... والمعنى الجامع بين التذكّر والندبة قوّة الحاجة إلى إطالة الصوت في الموضعين" (ابن جني، د.ط، ص٣/١٢٤-١٢٩).

يعلّل ابن جني مدّ الصوت والوقف في حروف العلة وأبعاضها بالمعنى الذي ينتج عن الصوت، فهي حروف ضعيفة تخرج من غير كلفة مع الهواء، ولذلك لا بد أن تقع بين حرفين لتتمكّن وتقوى.

وأما في معرفة أوزان الأفعال وصلتها بالأصوات فقد عقد ابن جني باباً في خصائصه بعنوان "إمساس الألفاظ أشباه المعاني" وقبله باب بعنوان: "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" (ابن جني، د.ط، ص١٥٢/٢) وهذان الموضعان نبّه عليهما العلماء قبله ولكنه توسّع فيه وفصَّل في مكنوناته فقال في باب التصاقب: "هذا غورٌ في العربية لا ينتصف منه، ولا يكاد يُحاط به، وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غفلاً مسهوّاً عنه" (ابن جني، د.ط،

ص١٤٥/٢). وقال في باب الإمساس: "اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقّته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحّته" (ابن جني، د.ط، ص١٥٢/٢).

وفي هذا الباب عرض ابن جني لأوزان المصادر الرباعية المضعفة وبين أن تضعيف الحرفين فيها سيعطي معنى التكرار، والمصدر الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت الحركات فيها. ومن ذلك قوله:

"المصادر الرباعية المضعَّفة تأتي للتكرير، نحو: الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة... و"الفَعْلى" في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة، نحو: البَشَكى، والجَمَزَى، والوَلَقى" (ابن جني، د.ط، ص١٥/٢).

إن تكرار الحرف بصوته سيؤدي إلى تكرار الفعل، وهذا الوزن الصرفي الصوتي سيعطي مدلولات معينة تكاد تكون ثابتة في العربية.

ويتطرق ابن جني أيضاً في باب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني" إلى دلالة أصوتا الحروف على الحدث والفعل، وإن كان وزنها الصرفي واحداً، ومن ذلك قوله: "فأمّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهجٌ متلئبٌّ عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدّلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر ممّا نقدّره، وأضعاف ما نستشعره. من ذلك قولهم: خَضِم وقَضِم، فالخضم لأكل الرُّطَب، كالبطيخ والقِثّاء وما كان نحوهما من المأكول الرَّطْب، والقَضْم للصُّلب اليابس، نحو قَضِمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك. وفي الخبر: "قد يُدْرَك الخَضْم بالقَضْم" أي: قد يدرك الرخاء بالشدة، واللين بالشظف، وعليه قول أبي الدرداء: "يخضمون ونقضم والموعد الله"، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرَّطْب، والقاف لصلابتها لليابس، حَذْواً لمسموع الأصوات على محسوس الأشياء" (ابن جني، د.ط، ص١٦٤/٢).

إن عناية ابن جني بالأصوات في مباحثة عامة، وتعليله الصوتي لأكثر الظواهر الصرفية والنحوية واللغوية والدلالية أمر يجعله رائد علم الأصوات العربي الذي أسّس لنظريات صوتية ومصطلحات في علم الصوت لا ينفك باحث عربي أو غربي ينطلق منها لدراساته الحديثة في مديان علم اللغة والصوتيات.

خاتمة:

مما تقدّم يتضح لنا تلازم التعليل الصوتي الصرفي عند ابن جني، وقد شغل البحث الصوتي فكر ابن جني فلم يصدر في تفسيره اللغوي إلا عن تصور دقيق لعلم الأصوات بتفاصيله كلها. وقد توصّل البحث إلى نتائج عدة، أهمها:

١- إن أصول علم الأصوات لم تستقر إلا بجهود ابن جني، وكان لنظرياته الصوتية أثر في التوجيه الصرفي والنحوي والدلالي.

٢- إن مبحثي الإعلال والإبدال الصرفيين لا يمكن تفسير ظواهرهما من دون الاحتكام إلى علم الأصوات ومقاربة الحروف وأصواتها.

٣- تعد ظاهرة الإدغام ظاهرة صوتية تقوم على تماثل الحروف وتجانسها والعوامل الصوتية لها أكبر الأثر في تفسير ظاهرة الإدغام وتوجيهها والعوامل الصوتية القرآنية والتغييرات الدلالية.

٤- إن الأساس الذي بنى عليه ابن جني فكره الصوتي واللغوي قائم على قانون الخفّة والنقل في الحروف والحركات، وبهذا القانون تعلل ظاهرة العدول في الأسماء عن أصولها وبناء الأفعال الرباعية والمضعّفة وخفة الأفعال الثنائية وغيرها.

٥- إن كثيراً من الأفعال والمصادر مشتقة من حكاية الأصوات، وكذلك فإن حروف الأفعال وأصواتها لها أثر في التغيّر الدلالي، فالصوت القوي يستجلب الفعل القوي، والصوت الضعيف يستخدم للأفعال الأخف والأسهل.

٦- إن ما وضعه ابن جني من نظريات صوتية وشواهد من كلام العرب وأشعارها كان الأساس لعلم الصوت الصرفي الذي نشأ حديثاً وأخذه علماء الغرب والعرب المحدثين فبنوا عليهم دراساتهم الحديثة لعلم الأصوات الخام phonology أو علم الأصوات العام phonetics.

المصادر والمراجع

١. الاستراباذي، رضي الدين، ١٩٧٥، *شرح شافية ابن الحاجب*، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢. أمين، عبد الله، ١٩٥٦، *الاشتقاق*، الهيئة المصرية للكتاب، ط١.

٣. أنيس، إبراهيم، ٩٧٥، الأصوات اللغوية، المكتبة الوقفية للكتب، مصر، ط٥.

٤. ابن الجزري، محمد، ٢٠٠٩، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية، مصر، ط٢.

٥. ابن جني، عثمان، ١٩٨٩، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة، بيروت، ط٢.

٦. حسان، تمام، ١٩٩٤، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، ط٥.

٧. الحملاوي، أحمد، ٢٠١٠، شذا العرف في فنّ الصرف، مكتبة ابن سينا، القاهرة.

٨. زيدان، جرجي، ١٩٨٧، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، دار الحداثة، لبنان، ط١.

٩. سقال، ديزيره، ١٩٩٦، الصرف وعلم الأصوات، دار الصداقة العربية، لبنان، ط١.

١٠. الصبَّان، محمد، ٢٠١٦، حاشية الصبّان على شرح الأشموني، المكتبة الأزهرية، مصر.

١١.عبد الجليل، عبد السلام، ١٩٩٨، علم الصوت الصرفي، مكتبة دار أزمنة، الأردن، ط١.

١٢.ابن عصفور، علي، ١٩٩٦، الممتع في التصريف، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان، ط١.

١٣.فليشر، هنري، ١٩٦٨، التفكير الصوتي عند العرب، تحقيق: عبد الصبور شاهين، مجمع اللغة العربية، القاهرة.

١٤.الكرملي، أنستاكس، ٢٠٠٠، نشوء اللغة العربية ونموّها واكتهالها، مكتبة الخانجي، مصر، ط٢.

١٥.مدكور، عاطف، ١٩٨٧، علم اللغة بين القديم والحديث، دار ابن خلدون، دمشق.

١٦.ابن منظور، محمد بن مكرم، ١٩٩٠، لسان العرب، دار صادر، مصر.

الأطروحات:

١٧.عبد السلام، محمد إبراهيم، ١٩٨٩، ظاهرة العدول في اللغة العربية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٨٩.

Sources and references:

1. Abdul Salam, Muhammad Ibrahim, 1989, The Phenomenon of Adoul in the Arabic Language, Master Thesis, Umm Al-Qura University, 1989.
2. Abdul-Jalil, Abd al-Salam, 1998, Morphological Phonology, Dar Azmana Library, Jordan, 1st Edition.
3. Al-Astrabadi, Radhi al-Din, 1975, Sharh Shafia Ibn al-Hajeb, Dar al-Kutub al-'Ilmiyah, Beirut
4. Al-Karmali, Instax, 2000, The Emergence, Growth and Use of the Arabic Language, Al-Khanji Library, Egypt, 2nd Edition.
5. Al-Sabban, Muhammad, 2016, Al-Sabban's commentary on explaining Al-Ashmouni, Al-Azhar Library, Egypt.
6. Amin, Abdullah, 1956, The Derivation, The Egyptian Book Authority, 1st Edition.
7. Anis, Ibrahim, 975, Linguistic Voices, The Endowment Library for Books, Egypt, 5th Edition.
8. El-Hamalawy, Ahmed, 2010, Shaza al-Arf in the art of exchange, Ibn Sina Library, Cairo.
9. Fleischer, Henry, 1968, Phonetic Thinking among the Arabs, edited by Abdel Sabour Shaheen, The Arabic Language Academy, Cairo.
10. Hassan, Tamam, 1994, Arabic Language, Its Meaning and Its Structure, House of Culture, Morocco, 5th Edition.
11. Ibn Al-Jazari, Muhammad, 2009, published in the Ten Readings, edited by: Ali Muhammad Al-Dabaa, Commercial Printing Press, Egypt, 2nd Edition.
12. Ibn Asfour, Ali, 1996, Al-Mumti 'fi al-Tasrif, edited by: Fakhr al-Din Qabawa, Lebanon Library, 1st Edition.

13. Ibn Jinni, Othman, 1989, characteristics, edited by: Muhammad Ali Al-Najjar, Dar Al-Hoda for Printing, Beirut, 2nd Edition.
14. Ibn Manzoor, Muhammad Ibn Makram, 1990, Lisan Al Arab, Dar Sader, Egypt.
15. Madkour, Atef, 1987, Linguistics between the Old and the Modern, Dar Ibn Khaldun, Damascus.
16. Sakal, Desire, 1996, Morphology and Phonology, Arab Friendship House, Lebanon, 1st Edition.
17. Zidane, Gerji, 1987, Linguistic Philosophy and Arabic Expressions, Modern House, Lebanon, 1st Edition.